خواطر حول وضع اللغة العربية

الدكتور محمد سويسي

بين الفينة والاخرى يقوم فينا داع الى ندوة تجمعنا او ملتقى نلتئم فيه كي نتحدث عن مفهوم التعريب وكي نخوض فى مشاكل التعريب ·

وكانى بهذا الداعى هو فى الواقع وخز فى الضمير وقد اخل بواجب مقدس نحو لغة حلت منا فى الافئدة وسرت محاسنها فى الشرايين والاوردة ·

فنحن نجتمع ونتساءل عن جوانب القضية ونتعلل بالخطب وبمحسنات الكلام ، وتختم الجلسات وتفترق الجموع ، وكل يظن انه قد قام بالواجب ·

وتنطفىء انوار الندوات والمؤتمرات وقد تحمست فيها الاجواء احيانا ، فارعدت السماء وابرقت ولكنها سحابة صيف سرعان ما تنقشع بل هى من السحب الخلب لا يرتجى من ورائها حى ولا ربيع ·

أو قل : نادى منادى الصلاة فام المؤمنون بيوت الله وقضيت الصلاة فانتشر الكل فى الارض للسعى والجرى وراء الفائدة غير متعظ بجليل المعانى التى من أجلها قصد المصلى ·

وتعرضت الى الموضوع مرارا عدة منذ عشرات السنين ، منذ سنة 1945 فى مجلة المباحث وسنة 1960 فى محاضرة لقدماء الصادقية عن اللغة العربية والمصطلحات العلمية وسنة 1971 فى مجلة الفكر ، وسنة 1973 بمؤتمر التعريب بالجزائر ، وسنة 1975 بطرابلس فى ندوة التعريب ·

ونحن نعود دوما الى البداية ، ونرجع الى مفهوم التعريب ، وهذا اللفظ يفيد فى اللغة الايضاح والتبيين ، وفى الاصطلاح يطلق على مدلولين مختلفين:

الاول ادخال اللفظ الاعجمى ضمن المعجم العربى فيصقل ويصاغ فى قوالب الاوزان العربية ويمكن من القبول لابنيتها والخضوع لمقاييسها وقواعدها ، فيشتق منه على الطريقة التى بها يشتق من العربى الصميم·

والمعنى الثانى — وقد شاع بيننا فى السنوات الاخيرة — وهو ايجاد مقابلات عربية للالفاظ الاعجمية حتى تصير العربية الفصحى وحدها هى لغة الكتابة والتدريس والاعلام تستخدم فى المدرسة والجامعة ، وتستعمل فى الدار والسوق وفى الصحافة والاذاعة ·

ففى المعنى الاول ينحصر القصد فى اللفظ المفرد، ويتعلق المعنى الثانى بصفة شاملة بحياة الامة ، يرمى الى ان تكون الصلة وشيجة بين الحاضر والماضى كى لا تنفصم العرى بين الشخص وبين آبائه ، بين تفكيره وشعوره ووسيلة تعبيره وتفكيرهم وشعورهم ولسانهم ·

اى ان النظرة الثانية ترمى الى المحافظة على عربية الاذهان قبل السعى الى الانساح فى معجم اللغة، فلا يفيد تعريب الالفاظ اذا ما بقيت العجمة هى المسيطرة على العقلية ، واذا ما انسلخ الفرد تدريجيا عن المجموعة التى اليها ينتمى دون أن يتمكن من الحصول على التبنى من قبل أمم لا عمومة له من بينهم ولا خؤولة ·

وما اللغة فى كافة المستويات سوى اداة للاتصال والابلاغ يكون لها من الفاعلية والنجاعة بقدر ما يكون لمستعمليها من كفاءة وبراعة ، وفى الواقع أن اللغة براء مما قد يلصق بها من تهمة الفقر والعقم، وانما يتعلق اصل الداء بالاشخاص وبعقلياتهم .

وانما تحيى اللغات بالاستعمال وبمسايرة التطور الثقافى والحضارى والاجتماعى .

ثم اننا سننظر الى مشكل التعريب بالمعنى الاول نظرة تقع فى اطارافسح واهم طالما وجدت البشرية جمعاء نفسها مواجهة اياه ولا سيما فى فترات التطور والتحول ، وهذا الاطار العام هو الذى يتمثل فيما يسمى اليوم بنقل التقنيات من بلد الى آخر . والح التساؤلات فى هذا الشان يتمثل فى : هل على الدول النامية أن تتلقى من الامم المتصنعة خبراتها واساليبها وطرقها العملية بحذافيرها وان تطبق نماذجها الانمائية كما هى ، مقتصرة على التقليد البسيط ؟ ام هل يجب على كل بلد ان يقتبس من الغير مجرد الاقتباس محافظا على ملاءمة ما يقتبسه لوضعه الخاص وبيئته الذاتية ودرجته فى النمو ؟

والشان فى اللغة كالشان فى الاقتصاد . وليس الامر خاصا بالعربية بل ان سائر اللغات قد تعرضت اثناء تاريخها لمين المشكل · ونحن سنقتصر على ذكر الموقف الذى وقفه فى الموضوع بعض الباحثين بفرنسا غب الوثبة التى وثبتها اوروبا نحو الحضارة العلمية وعند انبعاث المجتمع الغربى المتصنع فى نهاية القرن السابع عشر للميلاد وفى بداية القرن الثامن عشر·

فهذا **فينلون** يقول فى رسالته الخاصة بمشاغل المجمع اللغوى الفرنسى : « ان اللاتينيين قد اثروا لغتهم بما كانت فى حاجة اليه من المصطلحات الاعجمية فكانت تعوزهم مثلا مفردات مخصصة فى الفلسفة اذ لم تظهر بروما الا فى فترة متأخرة من الزمن ، فاستعاروا من اليونانية مصطلحاتها ليتمكنوا من ترويض افكارهم على مادة العلوم ·

وهذا **شيشرون** — وهو من حيث التزمت ومن حيث الحرص على سلامة اللغة — قد سمح لنفسه باستخدام المفردات اليونانية التى كان فى حاجة اليها ، وكان فى البداية يستعمل اللفظ اليونانى على أنه اعجمى يستسمح استعماله بتحشم ، ثم انقلب عنده الاسترخاص حقا وتملكا للمصطلح وحوزا له ، واعتبر ما جالتفيه يده بالحوز والتصرف حقا من حقوقه الخاصة ·

هذا وقد بلغنى أن أمة الانجليز لا تتعفف من استخدام كل ما من شانه ان يساعدها على التعبير مهما كان منشاه ومهما كانت مصطلحاته ، فتنقض على هذه المصطلحات انى وجدتها تستحوذ عليها ، وهم يعتبرون أن ليس لهذه الاصوات فى حد ذاتها من قيمة بل هى تنسب على السواء للامة المستعيرة لها وللأمة المعبرة اياها ، فهل هناك من اهمية لكون اللفظ قد ولد ببلد من البلدان او ببلد آخر منه نقل الى الاول ؟ وانه لمن تبيل الغيرة الصبيانية أن يشعر الانسان بفرق بين الامرين اذ ليس الشأن سوى اعتبار لكيفية تحريك الشفاه وقرع الهواء ..(*)

واذا ما اعتمد عيشنا بأكمله على استعارات صارت من رصيدنا الخاص ، فبم نبرز ما نبدى من استحياء من نقل مسمياتها بكل حرية ؟

(*) هذا الرأى يفقد شخصية الامة وكل الملابسات المعنوية التى تتصل بالموضوع — «اللسان العربى» ·

ومقدمة كتاب «الجامع لمفردات الادوية والاغذية» للنباتي ضياء الدين بن البيطار المالقي جليلة القيمة غزيرة المعاني في الموضوع الذي يهمنا ، فيجعل هذا العالم غرضه السادس من كتابه حسب قوله بنصه :

«في اسماء الادوية بسائر اللغات المتباينة في السمات مع أني لم اذكر فيه دواء الا وفيه منفعة مذكورة او تجربة مشهورة (وذكرت) كثيرا منها بما يعرف به في الاماكن التي تنبت فيها الادوية المسطورة كالالفاظ البربرية واللاتينية وهي اعجمية الاندلس ، اذ كانت مشهورة عندنا ، وجارية في معظم كتبنا وقيدت ما يجب تقييده منها بالضبط وبالشكل والنقط تقييدا يؤمن معه من التصحيف ويسلم قارئه من التبديل والتحريف ، واذ كان اكثر الوهم والغلط الداخل على الناظرين في الصحف انما هو تصحيفهم لما يقرؤونه او سهو الوراقين فيما يكتبونه» .

ويلخص البيروني رايه في تعريف المصطلحات في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة » فيقول : « وانا اذكر من الاسماء والمواضعات في لغتهم (يعني لغة الهند) مالا بد من ذكره مرة واحدة يوجبها التعريف ، ثم ان كان مشتقا يمكن تحويله في العربية الى معناه لم امل عنه الى غيره الا أن يكون بالهندية اخف في الاستعمال فنستعمله بعد غاية التوثقة منه من الكتبة او كان مقتضبا شديد الاشتهار فبعد الاشارة الى معناه وان كان له اسم عندنا مشهور فقد سهل الامر فيه » .

فالى لسان العرب اذن نقلت العلوم من اقطار العالم ، ويعود البيروني الى الموضوع في كتاب الصيدلة ويصرح بحبه للعربية فيقول : «وكانت كل أمة تستحلي لغتها التي الفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع الافها واشكالها ؛ واقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة في الكراب ثم منتقلة الى العربية والفارسية فانا في كل واحدة دخيل ولها متكلف والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به اذ لا تصلح هذه اللغة الا للاخبار الكروية والاسمار الليلية » .

هذه آراء بعض العلماء الاعلام في العصور الخالية فكأني بالمعارض يتوجه الي زاعما أني انما ادعو الى التعلق بالماضي وبأساليبه او اني ربما احث على التقليد واقتفاء الآثار ولكني اذ اذكر ما اذكرمن هذه الآراء فما ذلك الا للقول بأنها قد ساعدت قديما على ايجاد عقول نبيهة وادمغة ثرية منتجة فلا اعني بقولي هذا انه ينبغي تصنيعها بل الشأن ان نتخذ عملها وثائق تاريخية نرجع اليها كاداةصالحة فحسب وللغة وجودية تستلزم تجسيمها في وجود انساني ووجود اجتماعي والمجتمع قد تحول والعلم قد تطور وليس من المعقول ان نسير الى الوراء وان نسلك مسالك القدامى نفسها .

وقد يرى بعضهم أن في عملنا هذا ضياعا للوقت وشغلا للنفس بما يجعل الانسان يعرض عن وجهة التقدم وعن تيار الرقي المتدفق فما الفائدة في السعي الى التعريب مهما كان المقصود منه فالعصر في زعمهم هو عصر توحيد ، يُروع البشرية فيه ازالة الفوارق والغاء القوميات والعصبيات ، وفي العزم بعث نموذج من البشرية متماثل العناصر والصفات متوحد النزعات متشابه الآراء والمذاهب الفكرية والثقافية والاقتصادية يستعمل عين الطرق التربوية والاجهزة الاعلامية ويستخدم نفس الوسائل للتنقل ، له عين الذوق في المطعم والمشرب والملبس والمسكن . .

ونحن نرى ايضا ان هذا التقارب والتشابه من شأنه مبدئيا أن يحسم الخلافات وان يفض الخصومات ولكننا نلاحظ — عند التطبيق وفي الواقع — ان هذا الفكر انما يتم لصالح القوى المهيمن على من حوله من الناس وليت البشرية سارت سيرة عدل ، على سراط سوى لا تزيغ ذات اليمين ولا ذات الشمال ، لا شرقية ولا غربية راسخة الاقدام اصلها في الارض وفرعها في السماء . .

الا تكون الوحدة المزعومة على حسابنا وعلى حساب حضارة يعتز بها الانسان الحق ، انقذته من ظلمات الجهالة الحالكة ، وحفظت كرامة بني البشر واورثتهم تراثا من أروع التراثات جمالا واخصبها مضمونا وادقها علما .

وعند هذا يفاجئنا المعارض بلون جديد من التحليل والتفنن والتهويل فيسايرنا فى قولنا انما تكون اللغة بالاستعمال ويساندنا اذا ما قلنا انه من الواجب ان يتعرب التدريس وعندها يتبرم مرددا مقالة انيس فريحة : « ان الفصحى ليست لغة الكلام فلا يرجى منها ان تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها وقسوتها ولينها ، كما تستطيعه العامية والدليل ظاهر فانك لا تستطيع أن تقول بالفصحى ما تقوله فى العامية واذا نقلته الى الفصحى اتى جافا قاسيا خلوا من العنصر الانسانى اللصيق باللغة » فيجيبه الاستاذ بلاشير : « انى لاصرح أن لغة الاعتزاز هى العربية الفصحى .. ولو كنت عربيا لكنت بالطبع فخورا بهذه اللغة ان اللغة العربية هذه تمكن العربى من ابراز شخصيته أمام لغات الامم الكبرى وتشعره انه يمتلك لغة حضارية ممتازة .. » على أن مشكل الفصحى والعامية ليس خاصا بالعربية فهذا الاستاذ مرتينى الاخصائى فى ميدان الالسنية يصرح أن انتشار الفرنسية الفصحى بين عامة الفرنسيين حديث العهد ويضيف انه لا وجود للغة عامية فرنسية بل اننا كلما ابتعدنا عن باريس فى مختلف الاتجاهات ننتقل تدريجيا من لهجة الى اخرى ومع ذلك كل الفرنسيين يخاطبون معلمهم أو قساوستهم بعين اللغة ٠

وبهذا الاعتبار هل توجد بتونس لغة عامية واحدة بها يتخاطب اهل الوطن القبلى او اهل المهدية او اهل قفصة ؟ وما هى العامية التى قد يفكر بعضهم فى تعميمها لتعوض الفصحى ؟ اهى لغة الفلاح أم الجزار أم الملاح : لغة القرى أم لغة البادية ؟

ونحن مع ذلك لا ننكر ان لبعض الالفاظ العامية طرافة وانه فى الامكان ان تستغل العامية لاثراء الفصحى وتلقيحها ونحن ذكرنا آنفا ما صرح به ابن البيطار من استعماله البربرية واللاتينية لتسمية بعض الاعشاب بل اننا لا نتحرج فى بداية الامر من استعمال بعض المصطلحات الدخيلة ضمن مقالاتنا او فى دروسنا وهذا ابن سينا فى كتبه عامة وفى رسالته الالواحية خاصة يستخدم مصطلحات مستعارة من اليونانية والفارسية والهندية بنسبة لا تقل عن الثلث عن مجموع المصطلحات المستعملة فى رسالته ٠

ولعل احسن مثال يصور لنا هذا التدريج فى نقل العلوم الى العربية هو مثل كتاب ديوسقور بدرس فى الادوية المفردة ترجم هذا الكتاب بمدينة السلام فى الدولة العباسية فى أيام جعفر المتوكل وكان المترجم له اصطفين بن بسيل وتصفح ذلك حنين بن اسحاق فصحح ترجمة واجازها فما علم اصطفن من تلك الاسماء اليونانية فى وقته له اسما فى اللسان العربى فسره بالعربية وما لم يعلم له فى اللسان العربى اسما تركه فى الكتاب على اسمه اليونانى اتكالا منه أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربى اذ التسمية لا تكون الا بالتواطؤ بين اهل كل بلد على أعيان الادوية بما راوا ؟ ويقول ابن جنجل : وورد هذا الكتاب الى الاندلس وهو على ترجمة اصطفن منه ما عرف له اسما بالعربية ومنه ما لم يعرف له اسما فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق والاندلس الى ايام الناصر عبد الرحمن بن محمد فكاتبه ارمنيوس ملك القسطيطينية احسب فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وهاداه بهدايا لها قدر عظيم فكان من جملة هديته كتاب ديوسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب وكان الكتاب مكتوبا بالاغريقى .. وكتب أرمنيوس فى كتابه الى الناصر ان كتاب ديوسقوريدس لا تجتنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ويعرف اشخاص تلك الادوية ..

ثم بعث أرمنيوس الى الناصر براهب كان يسمى نقولا (يتكلم الاغريقى) واللاتينى وهو (اعجمية الاندلس) وكان يومئذ بقرطبة من الاطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما [illegible]ل من اسماء عقاقير كتاب ديوسقوريدس الى العربية .. فصح ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن اسماء هذه العقاقير تصحيح الوقوف على اشخاصها بمدينة قرطبة خاصة ما ازال الشك عن القلوب واوجب المعرفة بالوقوف على اشخاصها وتصحيح النطق باسمائها بلا تصحيف وتقبل الدخيل هكذا ضمن معجم اللغة هو ما اشرنا اليه فى المفهوم الاول للفظ التعريب اى نقل المفردات الاعجمية بلحمها ودمها وقد اجاز مجمع القاهرة الالتجاء الى هذه الطريقة اذا دعت الى ذلك الحاجة بأن لا يوجد لفظ متداول فى اللغة او مهجور يؤدى بدقة المعنى المصطلح عليه ٠ وكما لاحظنا انه قد يكون من المفيد فى المرحلة الاولى من التعريب ان نلتجىء احيانا الى هذه الطريقة ، وقد يفرضها علينا الاسراع لمواكبة سير الامم فى الميدان العلمى على انه لا ينبغى أن نعتمد

اساسا ونهائيا على هذه الطريقة بل يجب ان تصطبغ بالصبغة المرحلية خاصة ، ونحن فى موقف المستهلك لا المنتج ، وقد نكون الين جانبا غير متشددين فى هذه النقطة بالذات لو كنا لغيرنا اندادا ناخذ منهم بقدر ما نعطيهم ناتى بالامر الطريف المتاثر بشخصيتنا ووضعنا الخاص فنرد على ما اخذنا عوضا ونجرى بيننا وبين الغير تيارا مستمرا من التبادل الحق تساوت فيه جهتنا لا فضل لجانب منهما على الآخر بل ما تكافات اعمالهما ولكليهما على الآخر فضل ·

ونحن نعود فى النهاية الى ملاحظتنا وهى ان اللغة انما هى اداة يكون لها من الصلاحية والنجاعة بقدر ما يكون لمستعمليها من الكفاءة والبراعة ، وحياة اللغة بالاستعمال واللغة تتطور بتطور الحياة والا فان ما وقف وتحجر اضمحل وصار الى الفناء ·

هذا ومما يبعث على الامل — لا على التفاؤل — ما نقلته لنا الصحف فى الرابع والعشرين من شهر فيفرى المنصرم فكان شبه المفاجاة الطبية وهو ما اقدم عليه بعزم وحزم الاستاذ الدكتور سليم عمار من كلية الطب بتونس فالقى بها اول درس فى الطب باللسان العربى ·

ولعل ما يبعث على التفاؤل ما علق به بعض الطلبة الذين حضروا الدرس فقال قائلهم ان هذا الدرس كان حقا منعشا ولو ان البعض من الطلبة وجد صعوبة للاحاطة بالالفاظ الاصطلاحية ويقول آخر لقد تجاوز الاستاذ سليم عمار عقبة الاصطلاحات اذ كان ياتى بالمقابل الفرنسى بجوار المصطلح العربى حتى يتمكن من لم يتعود على الاستماع الى العربية من الاستفادة ومن ادراك المفاهيم العلمية · ويقترح بعض الطلبة أن يتمرن المتربصون على تسجيل ملاحظاتهم باللسان العربى وان يقوم المساعدون من بين ما يقومون به من دروس بدرس فى العربية ويقول طالب آخر ان ما استفادوه من هذا الدرس بالعربية هو ما كانوا يستفيدون فى دروس الفرنسية ، بل انه فى الامكان ان يقال انهم لو تعودوا من قبل على الاستماع الى دروس عربية لكان تصورهم للمفاهيم اسرع وهضمهم لها اسهل وايسر » ·

ثم يعقب معقب منهم أن معظم المرضى من ذوى الثقافة المتوسطة ويكون من الانجح ان يخاطبهم الاطباء باللغة التى يفهمون اى العربية وفى ذلك ما يعين على النلاح يتفهم المريض نوع مرضه وما يقتضيه من دواء ومن تدبير وبذلك يسهل على الطبيب نفسه قيامه بماموريته ·

بهذه الانطباعات المشجعة اختم تولى مؤملا فى ندوة مقبلة ان الاحظ أن الايمان الذى تغلب فى النهاية وان التعريب الحق الصادق قد دخل حيز التنفيذ وان نتائجه الملموسة قد ساعدت على ازالة بقية التخوفات لدى من كان يوجس خفية من مبادرة كان يرى فيها مجازفة وتهورا ·